المحاضرة الثانية - فكر عربي معاصر

السنة الرابعة

تتمة المحاضرة الأولى

**عنوان المحاضرة: العرب والراهنية الدولية**

ومستوياتها، كما أنّها تقوم بالوظيفة الحاسمة في تحجيم دور الجماهير العَربيَّة في القيام بالوظيفة اللازمة لتحقيق التَّقارب العربيّ العربيّ الفاعل.

## الراهن الحضاري

مِمَّا يكمل اللوحة المشهديَّة للمعطيات التَّاريخية والدُّوليَّة للواقع العربيّ هو الرَّاهن الحضاري للعالم العربيّ.

لن نتكلَّم في موقع العرب على الخريطة الدُّوليَّة فهذا موضوع بحثٍ آخر سنقف عنده لاحقاً. وإنَّما الذي يعنينا هنا هو أبرز معطيات هذا الرَّاهن الحضاري للعالم العربي، بل للأُمَّة العَربيَّة.

صار واضحاً أنَّ أمَّتنا العَربيَّة الَّتي هي أُمَّةٌ واحدةٌ بلغةٍ واحدةٍ وأصلٌ تاريخيٌّ واحدٍ ومصالح مشتركة وواحدة... تعيش تحت ظلال نحو خمسٍ وعشرين علماً وخمس وعشرين سلطةً وخمس وعشرين نظاماً وخمس وعشرين دستوراً... وعشرات بل رُبَّما مئات الأحزاب. ناهيك عن عشرات النَّظريَّات السِّياسيَّة الَّتي معظمها لا يصبُّ في مصلحة الأُمَّة العَربيَّة.

لا تكتمل صورة هذا المشهد الذي اكتفينا فيه على المعالم الكبرى والعريضة فقط إلا إذا نظرنا حولنا في العالم الذي بات صغيراً، الذي نجد فيه أوَّل ما نجد الأمم الأوربيَّة الَّتي تتكلَّم عشرات اللغات وتنتمي إلى عشرات القوميَّات... ومع ذلك وَجَدَتْ أنَّ من مصلحتها الاتِّحاد في مواجهة التَّحديات العالَميَّة المختلفة على مختلف الأصعدة والمستويات. ومثل ذلك تماماً ما حدث في أمريكا اللاتينية، وفي أمريكا الشَّماليَّة، وفي شرق آسيا ووسط آسيا، وفي أفريقيا غير العَربيَّة... رُبَّما العرب وحدهم هم الذي يحكمهم التَّشتُّت والتَّشرذم والاختلاف على الرَّغْمِ من أنَّهُم الأُمَّة الوحيدة اليوم الَّتي تعيش تحت ظلال الكثير جدًّا من الأعلام.

الذي يحكم هذا الرَّاهن الحضاريَّ العربيَّ إلى جانب هذه الأوضاع عنصران أساسيَّان هما التَّحديات والمشاريع.

## أولاً: التحديات

مما لا شكَّ فيه نَّ العالم يقف أمام تحديات جَمَّةٍ على مختلف الأصعدة والمستويات. وليس في هذا ابتكارٌ ولا اختلاقٌ ولا حَتَّى ظرفٌ طارئٌ أو خاصٌّ بالأُمَّة العَربيَّة في ظروفها الرَّاهنة. أيُّ أُمَّة تقف أمام تحدِّيات جَمَّةٍ مهما كانت أوضاعها وظروفها ومعطياتها التَّاريخيَّة، فالتَّحدِّيات الَّتي تقف أمام الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة الَّتي تحكم العالم اليوم ليست أقل من التَّحدِّيات الَّتي تقف أمام الأُمَّة العَربيَّة، ولا أقلَّ من التَّحدِّيات الَّتي تقف أمام الدُّولَ الأوروبيَّة مجتمعةً أو متفرِّقةً ولا أمام غيرها من الأمم.

إذن من الخطأ الظَّن أنَّ التَّحدِّيات تقف أمام الأُمَّة العَربيَّة وحدها، ولكن من المؤكَّد أنَّ طبيعة التَّحدِّيات ومدى خطورتها تختلف من أُمَّةٍ إلى أخرى، وقدرات الأمم على مواجهة التَّحدِّيات مختلفةٌ ومتباينةٌ، وتَعَامُلُ الأمم مع التَّحدِّيات مختلفٌ ومتباينٌ من أُمَّة إلى أخرى... ولكن مع ذلك كلِّه نفاجئ بأنَّ أمَّتنا العَربيَّة اليوم تكاد تكون وحدها الَّتي تعاملت مع التَّحدِّيات بيأسٍ وإحباطٍ واستسلامٍ وروحٍ انهزاميَّةٍ.

ليست هذه النَّظرة تشاؤميَّة بأيِّ حالٍ من الأحوال، إنَّها نظرةٌ توصيفيَّة لما هو عليه راهن الأُمَّة العَربيَّة اليوم. صحيحٌ أنَّهُ لا توجد دراسات تُفَاضِلُ بَيْنَ الأمم في مدى تعاملها مع التَّحدِّيات ولكن هناك واقعٌ معاشٌ ومعطياتٌ على مختلف الأصعدة والمستويات لمختلف الأمم منذ مطالع القرن العشرين إلى مطالع القرن الحادي والعشرين، وهذه الوقائع والمعطيات تؤكِّد نظرتنا تأكيداً قاطعاً.

أمام الأُمَّة العَربيَّة ضربان من التَّحدِّيات، كأيِّ أُمَّةٍ من أمم الأرض، تحدِّيات داخليَّةٌ وتحدِّياتٌ خارجيَّةٌ.

تتمثَّل التَّحدِّيات الدَّاخليَّة في مجموعةٍ من العناصر، وعلى الرَّغْمِ من إمكانيَّة إجمالها بالتَّخلُّف على مختلف الأصعدة والمستويات فإنَّهُ من الضَّروري الإشارة إلى محدِّدات هذا التَّخلُّف من خلال العناصر التَّالية:

١ ــ تخلُّف البنى الاجتماعيَّة وترهلها من قيمٍ وعادات وتقاليد وأعراف.

٢ ــ تقهقر البنية الحضاريَّة بمختلف مستوياتها ودلالاتها.

٣ ــ تخلُّف أساليب التَّربية ومناهجها ومضامينها.

٤ ــ تخلُّف طرائق التَّعليم ومناهجه وفلسفته وغاياته.

٥ ــ التَّخلُّف العلمي في مختلف الميادين والمستويات.

٦ ــ تخلُّف البنى الاقتصاديَّة وترهُّلها في مختلف المستويات والميادين الاقتصاديَّة؛ الإنتاجيَّة والاستهلاكيَّة، الصِّناعيَّة والزِّراعيَّة والتِّجاريَّة.

٧ ــ تخلُّف البنى التَّحتيَّة لهذه الميادين جميعها وانعدام آفاق التَّغيير والتَّأهيل.

٨ ــ الفساد الإداري والوظيفي في مختلف هذه الميادين.

٩ ــ انعدام الإحساس بالمسؤوليَّة والاستهتار واللامبالاة.

١٠ ــ انعدام روح المبادرة الصَّادقة والحقيقيَّة لتغيير هذا الواقع إلى واقعٍ أفضل.

أمَّا التَّحدِّيات الخارجيَّة فتتمثَّل بمجموعةٍ من الممارسات الَّتي تقودها الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة خاصَّةً ومعها الدُّول الأوربيَّة الكبرى، أي الدُّول الاستعماريَّة ووريثتها الرَّسميَّة الولايات المتحدة، من أجل الإبقاء على الواقع المتردِّي للأُمَّة العَربيَّة، وتبدو هذه التَّحدِّيات في مجموعةٍ من العناصر الَّتي يمكن إجمالها في العناصر التَّالية:

١ ــ المحافظة على تجزئة الأُمَّة العَربيَّة في الحدود الدُّنيا من السَّعي.

٢ ــ السَّعي إلى مزيدٍ من تفتيتِ الأُمَّة العَربيَّة ومزيد من التَّجزئة.

٣ ــ السَّعي إلى تكريس الحالة القطريَّة وسحب الهويَّة القوميَّة من التَّداول لصالح الهويَّات القطريَّة الجديدة.

٤ ــ إثارة مسائل الأقليَّات العرقيَّة والدِّينيَّة والطَّائفيَّة في العالم العربيِّ ورسم معالم الأُمَّة على هذه الأسس الجديدة.

٥ ــ إثارة الخلافات بَيْن الدُّول العَربيَّة لتكريس الانشغال عن التَّنمية والقضايا الرَّئيسيَّة الكبرى الَّتي تقف أمام الأُمَّة العَربيَّة.

٦ ــ محاصرة العالم العربي تقانيًّا بحيث وعدم السَّماح لأيِّ شركةٍ أو دولةٍ أن تُصَدِّرَ إلى الوطن العربي أي نوعٍ من التَّقانة ضمن الحدود والشُّروط الَّتي ترسمها السِّياسة الأمريكيَّة الأوروبيَّة للوطن العربي بَيْنَ الفترة والأخرى تبعاً للتَّطوُّرات العلميَّةِ العالَميَّة.

٧ ــ عدم السَّماح أن تصبح أيُّ دولةٍ عَربيَّة دولةً قويَّةً عسكريًّا بغضِّ النَّظر عن مدى قربها أو بعدها عن الكيان الصهيوني.

٨ ــ عدم السَّماح بأيِّ نهضةٍ علميَّةٍ حقيقيَّةٍ في الوطن العربي إلا ضمن حدود السَّيطرة والمسموح به.

هذه أبرز معالم التَّحدِّيات الدَّاخليَّة والخارجيَّة الَّتي تقف أمام الأُمَّة العَربيَّة وتعرقل نهوضها وقدرتها على الفعل، وهي كلُّها حقائق ووقائع وليست توقُّعاتٍ ولا افتراءاتٍ، وفيما سيأتي من فصول توثيق لهذه الحقائق وتأكيد لها. وعلى الرَّغْمِ من وضوح ذلك وضوحاً جليًّا فإنَّ الأُمَّة العَربيَّة من محيطها إلى الخليج لا تقف عاجزةً وحسب، بل تسير عكس ما هو مطلوب تماماً. قد يكون العجز عن الفعل مسوَّغاً بمعنى من المعاني، وفي مدرسة من المدارس أمَّا أن نجد أنَّ العالم العربي معظمه يسير في الاتِّجاه المناقض تماماً للمصالح العَربيَّة العامَّة، وحتَّى للمصالح القطريَّة الخاصَّة، فهذا أمرٌ لم نجد له تسويغاً يقبله عقلٌ أو يقرُّهُ منطقٌ، بل لم نجد له في التَّاريخ نظيراً وربَّما لا يمكن أن يشهد قادم الأيَّام له نظيراً في أُمَّةٍ من الأمم.

**ثانياً: المشاريع**

بات الحديث عن المشاريع أمراً نافلاً بعد استعراض النِّقاط السَّابقة. ولكن، على أيِّ حالٍ، من الضَّروري أن نشير إلى أنَّ الحديث عن المشاريع أيضاً ثنائيُّ الاتجاه، فهناك الحديث في المشاريع الَّتي يعدُّها العالم الغربيُّ خاصَّة للأُمَّة العَربيَّة، والمشاريع الَّتي

تعدُّها أممُ الأرض لنفسها، والمشاريع قَدَمها العرب لتغيير واقعهم ومواجهة هذه المشاريع أو التَّحدِّيات.

بعد جلاء الكثير من الحقائق بات من السَّهل القول إنّ العرب فيما يبدو يفضلون المراوحة دائماً في مؤخّرة الرَّكب... لأنّ أمم الأرض كلَّها، وربَّما من دون استثناء، تعمل على قَدَمٍ وساقٍ في مختلف المجالات والميادين، وتضع المشاريع والمخطّطات الَّتي تسعى في تنفيذها لتغيِّر واقعِها إلى واقعٍ أفضل واحتلال مراتبَ متقدِّمةٍ بَيْنَ الأمم والشُّعوب، نجد أنَّ العالم العربيَّ خالي الوفاض من مثل هذه المشاريع.

هناك الكثير من المشاريع التَّنمويَّة ولكنَّها كلُّها تقريباً باءت بالإخفاق لانعدام الإحساس بالمسؤوليَّة وسوء التَّخطيط والفساد وانعدام المحاسبة.

أكثر من خمس وتسعين بالمئة من مشاريع دول العالم تكللت بالنَّجاح والنَّجاح الباهر في كثيرٍ من الأحيان، في حين أنَّ أكثر من خمس وتسعين بالمئة من المشاريع العَربيَّة باءت بالإخفاق الذَّريع، بالإخفاق مع سبق الإصرار والتَّصميم بامتيازٍ.

ولذلك وجدنا كلَّ الدُّول الَّتي نالت استقلالها مع الدُّول العَربيَّة أو حتَّى بعدها، ومع كونها أفقر من الدُّول العَربيَّة بمختلف الإمكانيات، فقد حقَّقت تطوُّراً جعلها تسبق أكثر الدُّول العربيَّة تطوراً بعشرات بل بمئات الأضعاف من المرات.

ليس ثَمَّةَ عيب في أن يخفق المشروع أيُّ مشروع، ولكن أن يكون ثَمَّةَ إصرارٌ على تنفيذ المشاريع مضمونةِ الإخفاق فهذا ما لا يمكن وصفه بحالٍ من الأحوال. وهذا في حقيقة الأمر هو واقع الممارسة العَربيَّة طيلة القرن العشرين.

رُبَّما يكون في هذا بعض التَّجنِّي، لا أنكر ذلك، ولكنَّهُ أقلُّ قليل التَّجنِّي، لأنَّهُ أقل قليلٍ نسب الارتياب في النَّتائج.

## الجامعة العَربيَّة

انتهت يوم الخميس ١٤٢٦/٤/٣ هـ الموافق٢٠٠٥/٥/١٢م أول قمة بَيْنَ دول أميركا الجنوبيَّة والعالم العربي، بصدور إعلان برازيليا الذي كان إعلاناً صارخاً قويًّا أبرز ما فيه دعمه غير المشروط للقضايا العَربيَّة وخاصة فلسطين والعراق، وإدانة السُّلوكات الأمريكيَّة الإسرائيليَّة إدانةً صريحةً قويَّةً. وهذا ما فرض الدَّهشة على المتلقّين في العالم العربيِّ خاصَّةً والمهتمّين في كثيرٍ من دول العالم، حَتَّى علَّق أحدُ الصحافيين على هذا البيان قائلاً: «إنَّ إعلان قمة برازيليا؛ العَربيَّة الأمريكية اللاتينية كان في دعمه الحقَّ العربيَّ أقوى من كلّ إعلانات القمم العَربيَّة».

نعم، كان البيان الختامي لأوَّل قمة لاتينيَّة عَربيَّة أرقى وأشدَّ حزماً من كلّ بيانات القمم العَربيَّة السَّابقة، وأكثر أهميَّةً من كلّ مقرَّرات الجامعة العَربيَّة عَبْرَ تاريخها الطَّويل.

ما من شكٍّ في أنَّ الجامعة العَربيَّة قد اتَّخذت الكثير جدًّا من القرارات الإيجابيَّة والجيدة، ولكِنَّها كلها حبرٌ على ورق، وقيمتها من دون تطبيق لا تساوي قيمة الحبر الذي أنفق على كتابتها. أمَّا الذي طُبِّقَ من قرارات القمم العَربيَّة فهو إما عكسها أو التَّوصيات الَّتي تكرس الخلاف العربيَّ العربي وتنتقص من الحقِّ العربيِّ والكرامَّة العَربيَّة. كيف لا وهناك في أدراج الجامعة العَربيَّة مئات القرارات والمعاهدات والاتفاقات والمشاريع الَّتي تكفي لتحويل الأُمَّة العربيَّة إلى أُمَّةٍ عظيمةٍ إذا طُبِّقَ عُشرها فقط. يكفينا أن نعلم أنَّ أيسر الاتفاقات وأسهلها هو اتفاق تحرير التِّجارة العَربيَّة البينيَّة لم يطبق إلا بعد مرور خمسين سنةً على إبرامه تحت سقف الجامعة العَربيَّة فيما أبرمت الدُّول العَربيَّة فرادى عشرات الاتفاقيات المماثلة مع دول أوربية وأمريكية وحَتَّى الكيان الصهيوني. ومع ذلك فقد التزمت الدُّول العربيَّة بكلّ اتفاقياتها مع الدُّول غير العربيَّة وقُبِرَت اتفاقيَّة التِّجارة العربيَّة الحرَّة بَعْدَ أقلّ من شهرٍ من إعلان سريانها الفعلي!!

وإذا نظرنا إلى الجامعة العَربيَّة من زاويةٍ أخرى وجدنا أنَّها في العرف الشَّعبي جامعةُ الشَّجب والتَّنديد، لأنَّ كلَّ قممها ومجالسها على مختلف مستويات المسؤوليَّة، منذ تأسيسها وحَتَّى فترة قريبة لم يكن لها من عملٍ إلا الاجتماع للتَّنديد والشَّجب وليس أكثر. ومع مطلع العقد الأخير من القرن العشرين افتقرت مجالس الجامعة العَربيَّة من أدنى مستوياتها حَتَّى مستوى القمَّة إلى القدرة على الشَّجب والتَّنديد، وصار بعض الحكَّام العرب يشترط لحضور القمَّة أو للسَّماح لها بالانعقاد عدم التَّعرُّض للهمجيَّة والوحشيَّة الصهيونيَّة. وصار شعارها الجديد هو الإصرار على المطالبة بمتابعة مسيرة السَّلام العربي الإسرائيلي، وتحوَّلت مع مطالع القرن الحادي والعشرين إلى الإصرار على السَّماح بالتَّطبيع المجاني بَيْنَ الدُّول العَربيَّة والكيان الصهيوني، حَتَّى مع عدم عودة الحقوق العَربيَّة بالحدود الدُّنيا المتَّفق عليها دوليًّا.

وإلى جانب ذلك كلّه اكتشفنا على نحوٍ مفاجئ ما كنَّا نتوقَّعه سابقاً وإن كان بطريقة أخرى، وهو أنَّ الولايات المتَّحدة هي الَّتي كانت تصوغ البيان الختاميَّ للزُّعماء العرب وتقدِّمه لهم ليعلنوه باسمهم، وهي الَّتي تقرِّر جدول الأعمال، والأمور المهمَّة الَّتي يجب نقاشها، ولم يعد مثل هذا مثار أيِّ نقاشٍ أو جدلٍ لأنَّهُ تمَّ فضحه من الرَّئيس الليبي **معمر القذافي**، وكذلك بعض المسؤولين العرب والأجانب، ووسائل الإعلام الغربية ذاتها.

الغريب أنَّ هذه الممارسة الأمريكيَّة الَّتي بَدَتْ لنا جديدةً لم تكن بالجديدة لأنَّ الدَّور الذي تلعبه الولايات المتحدة اليوم مع الجامعة العَربيَّة في قممها استلمته عن الإمبراطوريَّة الإنجليزيَّة، فقد كانت بريطانيا سابقاً هي الَّتي تصوغ بيانات قمم الزُّعماء العرب ومجالس الجامعة العَربيَّة معظمها.

لا غرابة في ذلك من وجهة نظرنا اليوم ومن خلال ما تكشف لنا من حقائق التّخاذل الرّسمي العربي على مختلف المستويات. ولكن عدم كونه مستغرباً لا يعني أنّهُ مسوغٌ أو قابلٌ للتّسويغ، ولا يعني أنّهُ مقبولٌ أو قابلٌ للقبول.

إذا كانت بعض الدول العربية قد قامت بعمل جبار في تحويل الجامعة العَربيَّة من جامعةٍ فاعلةٍ إلى جثّةٍ هامدةٍ منذ لحظة الولادة، فإنّ الحكّام العرب معظمهم منذ ولادتها وحتّى اليوم قد فرحوا بما وصلت إليه الجامعة العَربيَّة من انعدام القدرة على الفعل والحياة. ومع يقين أنّ الجامعة العَربيَّة ولدت جثّةً بلا روحٍ فقد ظلّ العرب والحكّام العرب مقتنعين بأنّهُ يمكن أن تسري الروح في أوصال جثة... أنّهُ يمكن لميت أن يعيش. أو بمعنى آخر ظلّوا يؤمنون بأنّ الميّتَ مثل الحيّ، وتعاملوا مع الجثّة تعاملهم مع الجسد. لم يحاولوا نفخ الرُّوح فيها بل تعاملوا معها على أنّ الرّوح فيها. ولذلك لا عجب في أن نجد القمّة اللاتينيَّة العَربيَّة الّتي حضرها كل قادة أمريكا اللاتينية ولم يحضرها سوى ثلاث قادة عرب، تأتي بنتائج في صالح العرب أكبر وأكثر أهمّيةً من كلّ نتائج كلّ القمم العَربيَّة، بل لا عجب أيضاً في أن يرفض قادة أمريكا اللاتينية أيّ حضور للولايات المتحدة في القمة فيما الولايات المتحدة شريك في القمم العَربيَّة.

## خاتمة

إنّ ما تحدّثنا من مقوّمات الواقع العربي المعاصر هو في حقيقة الأمر أبرز عناصر أو محاور مقوّمات هذا الواقع لا كلها، ولكنّها في ظنّنا المحاور الرئيسة الّتي تختزل ما لم يتم تبيانه أو الحديث. ومن الضرورة بمكان هنا أن نشير إلى أنّهُ يبدو في كلامنا بعض المبالغة أو بعض التّجنّي في التّوصيف والعرض، ونحن لا ننكر ذلك، لا ننكر أنّهُ يبدو أنّ ثَمّةَ بعض المبالغة

والتَّجنّي، ولكن من الضَّروري تأكيد أنّ المبالغة أو التَّجنّي إن وجدا فهما في حدود نسبة الارتياب المسموح به في النَّتائج ولا يخرج الأمر عن ذلك أبداً. لأنَّ ما سبق وعرضنا في هذا الفصل الذي يبدو فصلاً تمهيدياً ليس إلا غيضاً من فيض الوقائع والحقائق الَّتي يتعذَّر نكرانها أو دحضها. بل إنَّ ما سنجده من أمثلة ونماذج في فصول الكتاب اللاحقة ليس إلا نماذج وشواهد دلاليَّة لا إحصائيَّة، لأنَّ إحصاء الأمثلة والشَّواهد أمرٌ قد يبدو متعذَّراً نظراً لكثرة الممارسات والوقائع الَّتي يمكن أن تكون شواهد وأمثلة على أحكامنا.